مقدمة

بقلم الاستاذ الدكتور منصور فهمى

ألف الكتّاب إذا ما وضعوا مقدمة لكتاب من الكتب أن يضمنوها بعض ما يحتويه هذا الكتاب من مبتكرات الفكر وأمهات المسائل ، وحسناً يفعلون ؛ فإن مقدمات الكتب هى مداخلها التى تهيء القارىء إلى ما سيقرأ ، وتعد فكره لما ينساب فيه من مختلف المعانى وشتى الصور . على أننى تهيبت أن أضع مقدمة لقصة رفائيل عندما تكرم أخى الأستاذ الزيات بدعوتى إلى ذلك ، لأنى خشيت إن أنا نحوت فى هذا الكتاب منحى الكتاب فصغرت صورته ولخصت فكرته أن أكون قد شوهت شيئاً من جماله وأنقصت كثيراً من كماله . لأن قصة رفائيل جمال حى وأدب راق وفن صاف ، وهيهات أن ينقل المرء إلى القارىء صورة من صور الجمال الحى ! وهل تستطيع ريشة المصور مهما آتاها الله من الرقة والدقة أن تنقل صورة صحيحة لحسناء لابس الجمال معناها ومبناها ؟ أم هل يستطيع قلم الكاتب مهما نال من حسن الصياغة وقوه البلاغة أن يلخص كتاباً فنياً من كتب الأدب ، ويبسط للناس ما فيه من روعة وحسن ؟ إن من حاول ذلك شق عليه الأمر والتوت به السبيل . إن خير ما أنصح به لمن يريد أن يمتع نفسه بأثر الجمال الحى أن أغريه برؤية ذلك الجمال حياً . وخير ما ينتصح به من يريد أن يتذوق الأدب أن يقرأ ما كتب الأديب . وعلى ذلك ينبغى أن يقرأ هذا الكتاب من فاتحته إلى خاتمته .

على أننى فضلا عن تهيبى تلخيص ما فى الكتاب تحرجت أن أدفع بقلمى فى ميدان ليس من فرسانه ، فإن الكتاب من وضع أديب كبير ، ومن تعريب

أديب كبير ، وجدير بقلمى أن يدع مضمار الأدب للأدباء ، ويترك مجال البلاغة للبلغاء . ولكن حرصى على إجابة الصديق سهل على ما استصعبت ، وهدى قلمى إلى ما أحببت ، فبدا لى أن أقتطف من الكتاب بعض زهراته لأجعلها دليلا على ما فيه من سمو البيان ورقة الأدب . ولكن اقتطاف شىء منه ليس باليسير الهين ، فإن كل ما يقع عليه نظر القارئ لا يخلو من درة فكرية ، أو نكتة بيانية ، أو انسجام حسن ، فكيف لا يحار الإنسان إذا أراد أن يتخير شيئاً دون شىء ؟ وكيف يترك قطعة فيها عظمة الفكرة إلى أخرى فيها سحر البيان ؟ فى الكتاب ماشئت من دقة الوصف ورقة الغزل وعمق الفكر وفلسفة الشك وصدق النقد ونشوة التصوف ونغمة الموسيقى وحلاوة الإيمان وطهارة الحب . وسترى فى كل صفحة من صفحات الكتاب مثالا صادقاً على كل ذلك . على أن أضوأ نواحى الكتاب وأجلى مظهر فيه رفع الحب إلى مستوى التقديس والعبادة . وقد يزعم نفر من الذين لا يرون فى الوجود إلا الحقائق المادية أن ذلك الحب العذرى النقى هو اختلاق شاعر أو تصوير مصور ، وينسى هؤلاء أن من خير وظائف الكتاب والفنانين أن يستنزلوا من السماء إلى الأرض عالماً وسطاً بين عالم الكمال الذى تحن إليه النفس وتنزع إليه الإنسانية ، وأن هذا العالم السماوى الوسط يرفع الناس من حقائقهم الكدرة إلى حقائق أصفى ، وأن ما يبدو من الأمور للناس بعيد المنال قد يدنون منه شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن ، حتى إذا مابلغوه أصبح حقيقة من وجودهم وجزءاً من سلوكهم وأخلاقهم . ألم تكن تلك الحقائق الخلقية من شفقة على المظلوم ، وامتهان للرق ، واحترام لحقوق الإنسان ، خيالات الشعراء فى العصر الغابر فأصبحت

اليوم حقائق أو شبه حقائق ؟ إن المثل العليا من القول والفعل لتسمو بالإنسان من الأرض إلى السماء .

وشيء آخر فى الكتاب أعلى وأجل : ذلك هو الوصف بنوعيه الحسى والنفسى . ومنذ القدم انطوت النفس البشرية على نزعتين مختلفتين ظهرتا على أشد ماتكونان فى عصر النهضة الغربية ، وأمدتا بوحيهما وهديهما حركة المدنية . فالأولى نزعة لفيف من مفكرى النهضة إلى سبر أغوار النفس ليتبينوا ما فى عالمها من معان ، ويصفوا ما فى ساحتها من مشاهد .

وقدما تطاولت الرقاب إلى معرفة خفايا النفس واستجلاء عالمها القدسى ، وجابت صحراواته طوائف الفلاسفة وفئات المتصوفين ، فإذا عاد إلينا أحدهم بنبأ لا نستخلص منه إلا أن فى هذا العالم ما يدهش وما يحير . لذلك تلجلجت ألسنة المحدثين عنه ، وكان جل ما نسمع من المتصوفة وأضرابهم رموزاً وتمتمة أشبه برقىَ المشعوذين والسحرة . وذلك لأن أكثر شؤون النفس مستغلق لا تجد العبارات إلى تصوير معانيه سبيلا . ودام ذلك الأمر حتى قيض الله للناس رجالا من عصر النهضة جلوا بألسنتهم تلك الشؤون ، ووصفوا بأقلامهم تلك الحالات ، وصرفوا عنايتهم إلى تجريد المعنويات ، فكسب ذلك لغات الغربيين عنصراً جديداً قواها ونماها ، لأن الكاتب الذى يغوص فى أعماق نفسه ليتصيد المعانى صافية جلية لا يلبث أن يعود إلى القراء بدرر من الألفاظ ، ولا تلبث تلك الألفاظ الدرية أن تندس فى أنسجة اللغة فتزداد نماء وجلاء وقوة . أما النزعة الثانية فهى امتداد العقل إلى معرفة الموجودات الحسية واكتناه طبائع هذا الوجود الخارجى . والوجود الخارجى هو هذه الأشياء المحيطة بنا ، وإن عالمها ليضيق بضيق

علم الإنسان بمميزاته ، وضآلة فهمه لصفاته ، وقصور نظره عن استطلاع جهاته ، ولكنه يجل ويتسع بمقدار إحصاء المرء لشؤونه ، وتناول بيانه لهذه العبارات التى بمقدار وفرتها تنبىء أن الإنسان على قلته قد اتصل بالكثير، وعلى ضعفه قد جابه هذا الكون العسير ، فصاغ للموجودات المسميات ، وعرف منها ما كان نكرة لديه ، ووسم بألفاظه وأسمائه من مظاهرها ما كان خفياً عليه . ولا شك أنه بقدر ما يبلغ الإنسان من معرفة هذين العالمين ، وبقدر ما يتقصى النظر فى مهامه هذين الكونين ، يكسب لسانه ويرقى بيانه. وفى الكتب المقدسة أن الله لما سوى آدم علمه الأسماء كلها . ولعل أبا البشر بلغ بتوفيق ربه درجة من العلم لا يفوقها إلا علم الله . وذلك لأن معرفته لجهات النفس وعلمه بأسمائها إذا أضيف إليها أسماء الموجودات الخارجية ومعرفتها كان ذلك كمال العلم . وفضل الله يؤتيه من يشاء .

فكأن الأستاذ الزيات باختياره ترجمة هذه القصة التى استمدها كاتبها من جمال الطبيعة وجلال الإيمان وشرف العاطفة قد حرص على أن يقرئنا صحيفتين فيهما دقائق الكونين من عالم الغيب والشهادة ، أو من عالم المعنى وعالم الحس . وبهذا الحرص قد خدم اللغة العربية أجل خدمة . وأى خدمة أعظم من أن يعين الإنسان لغته على بلوغ دقة الوصف ورشاقته ، وتحليل الشعور ورقته ؟

* * *

إن الأوائل من العرب لم يغفلوا بعض الأوصاف فوصفوا الإبل وسيرها والخيول وكرّها ، ووصفوا أساليب القتال من مجاولة ومصاولة ، ومناظر الطبيعة من سحاب وهضاب وبر وبحر ، ووصفوا الخمور ومزجوا

بين بعض الأوصاف ، وألموا أحياناً بوصف حالات النفس من هيام وغرام ، أو زهادة وابتهال ؛ ولكن هذه الأوصاف التى توخوها لم تكن إلا جزءاً صغيراً علموا به القليل من حالات النفس ، وقدراً يسيراً كشفوه من مساحة هذا الكون الخارجى . فبعد مضى عصرهم امتدت معارف الإنسان إلى أرض غير هاتيك الأراضى ، وإلى سموات غير هاتيك السموات ، وتغيرت نفس الإنسان وتطورت ، وكسبت من العلم ورقت ، وأصبحت الأرض غير الأرض ، والسماء غير السماء ، والنفس غير النفس . فإذا نقل إلينا الناقلون كتاباً حديثاً يتضمن أوصافاً لأرض غير التى ذكرها العرب ، ويحتوى مشاعر غير التى أحسها العرب ، فإنهم بعملهم هذا يمدون فى لغتنا سبباً ، ويضيفون إلى زهراتها زهوراً ، وإلى نغماتها ألحاناً ، وإلى حياتها حياة .

إن رفائيل أثر من آثار هذا العصر الحديث ، وثمرة من ثمار هذا الزمن المتأخر ، وهو آية من آيات فنه ، وإلهام نابغ من نوابغه ، قد اشتمل على التصوير الدقيق والتعبير الرقيق والخيال المتوثب. فلما تبينت أن لغتنا العربية لم تعجز عن نقل ما فيه من البدائع الحسية والمعنوية تذكرت ضجة قامت حديثاً بين جماعة من أدبائنا يذهب بعضهم إلى أن اللغة العربية دون غيرها من لغات الغرب فى تسمية الأشياء وتصوير المعانى . ويذهب البعض الآخر إلى أن العربية قد وسعت المعانى كلها ، وتناولت جميع الأغراض من ذوات وأعراض. ويبدو لى أن الفريق الأول قد أحاطوا بالكثير مما دون الغربيون من علم وأدب وفن ، ولكنهم ألموا بالقليل مما احتوته اللغة العربية من العبارات ، وسجلته من الاصطلاحات ، فظنوا أنها لا تطاول اللغات

الأخرى ، فأثموا فى بعض هذا الظن ، ويئسوا من أن تحقق العربية ما يجيش فى صدورهم من المشاعر ، وما علموه وشهدوه من تباين الآيات ، وضروب الصناعات ، وشتى المخترعات . وكأن هذا الفريق فيما يراه فى أمر اللغة لا يخلو بعضه من غيرة صادقة عليها ، ورغبة محمودة فى إعلاء منارها ، وبعضه عن افتتان بأدب الغرب فتنه عن لغته وأدبه ؛ وبعضه من جهل بما فى العربية من ثروة وقوة وعظمة ، ومن جهل شيئا عاداه . أما الجماعة الذين أفرطوا فى الوثوق بخصائص اللغة العربية وحسبوا أنها قاربت كمالها ، وكادوا يقولون فيها ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، فإن أكثرهم لم ينل حظاً من العلم بما فى آداب الأمم ، وفاته أن فضل الله لم يكن ليتركز فى إنسان ، ولا يحبس على مكان دون مكان. ولعل أشد ما ورط هؤلاء الجماعة فى هذه الدعوة نوع من العصبية المحمودة الأثر فى حفظ مشخصات الأمم وتقوية مقوماتها ، أو نوع من التعصب عقيم ، وركون إلى خمود ذميم . وعندى أن هؤلاء وأولئك لو أنصفوا أنفسهم لوجدوا أنهم يقاتلون فى غير عدو ، وأن ضجيجهم لو تأملوا ليس له مبرر ، لأن اللغة ليست إلا نفوس الناس تتحرك فتجرى ألفاظاً على اللسان ، وتعابير فى الأذهان ، عند ما تدفعها الدوافع والحاجات ، وتهزها هزات التقدم وأسبابه ، وترنحها سكراته وتطربها نغماته . فلو أن نفوس القوم طاوعت حاجات الزمن لطاوعت لغتهم أموره ، ووسعت مراميه ، واحتالت إلى ذلك بأنواع النحت والاشتقاق ، وبعث ما كان مقبوراً ، وكشف ما كان مستوراً ، ولوجد كل قائل ما يقول .

وخير برهان على ذلك أن قصة رفائيل التى نحن بصددها يقرأها الإنسان

عربية صحيحة على أسلوب العرب ، وبيان العرب ، وفيها رخامة ألحانهم ورنات أوتارهم ، وهى تحمل إلينا كل ما قاله وصوره كاتب من أكبر كتاب الفرنجة بلغة الفرنجة وأسلوبهم ولحنهم . أو يقول المتطرفون بعد ذلك أن اللغة جامدة ؟ أو يقول الجامدون بعد ذلك أن نفوسنا لا تتأثر بما تنقله إلينا اللغة من مشاعر الغير وأساليبه فى تصوير الوجود ؟

* * *

بقى على أن أقول كلمة فى رفائيل من جهة الترجمة والتعريب . وتوطئة لذلك أثبت هنا ما نقله البستانى فى مقدمة الألياذة عن العاملى عن الصلاح الصفدى قال :

« وللترجمة فى النقل طريقان احدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصى وغيرهما . وهو ان ينظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتى الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها فى الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل الى أخرى كذلك حتى يأتى على جملة مايريد تعريبه . وهذه الطريقة رديئة لوجهين احدهما انه لايوجد فى الكلمات العربية كلمات تقابل جميع كلمات اليونانية : ولهذا وقع فى خلال التعريب كثير من الالفاظ اليونانية على حالها . الثانى ان خواص التركيب والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائما ، وايضا يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهى كثيرة فى جميع اللغات .

الطريق الثانى فى التعريب طريق حنين بن اسحاق والجوهرى وغيرهما : وهو ان يأتى بالجملة فيحصل معناها فى ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بحالة تطابقها سواء ساوت الالفاظ أم خالفتها . وهذا الطريق اجود . ولهذا لم تحتج كتب حنين بن اسحاق الى تهذيب الا فى العلوم الرياضية لانه لم يكن فيها بها . بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعى والالهى فان الذى عربه منها لم يحتج الى اصلاح » .

ثم قال البستانى بعد ذلك : « وإن هذين الطريقين اللذين أشار إليهما الصلاح الصفدى منذ زهاء ستة قرون هما المذهبان المعول عليهما فى النقل

حتى يومنا . وليس وراءهما مذهب ثالث فى التعريب الصحيح » .

وعندى أن الترجمة فن من أدق الفنون ينم عما للمترجم من سلامة الذوق وبراعة القدرة ولاسيما فى الترجمة الأدبية . وذلك لأن اللفظ الواحد فى لغة من اللغات قد يقابله لفظان أو ثلاثة فى اللغة المترجم إليها ، وقد يحصل أن اللغة المنقول إليها ليس فيها من الألفاظ ما يعبر عن معنى يحمله لفظ واحد فى لغة أخرى . وفى هـذه الظروف تظهر قوة المترجم وبراعته وفنه. إذ تراه يتخير من الألفاظ الكثيرة لفظاً دون آخر ، إما لأن ما اختاره يكون أدق من جهة المعنى ، وإما لأنه فضلا عن دقته يكون أوقع من حيث الموسيقى والانسجام . وتراه أحياناً يقدم الفاعل على الفعل ، والخبر على المبتدأ ، ويؤخر جملة تقدمت ، ويؤخر أخرى تأخرت ، دون أن يحيد عن القصد أو يخرج عن المعنى .

ولقد وجدت فى ترجمة رفائيل أن الأخ شكر الله له جهوده جمع فى منهاجه فى الترجمة فضائل الأساليب جميعاً . فلم يفرط فى نظام الكلمات إذا سلم المعنى ، فكأنه توخى بذلك خير ما فى أسلوب ابن البطريق والحمصى ، ولم يفرط فى معنى إذا لزم الأمر لتفريط فى مبنى ، فكأنه توخى بذلك خير ما جاءت به طريقة حنين والجوهرى . وبين تزويجه للطريقين قد أفاده تمكنه من اللغتين المنقول إليها والمنقول عنها ، فتخير الألفاظ وصقل الأسلوب وأدى الأمانة بما يقتضيه الدقة والإيجاز . والخلاصة أن الأستاذ الزيات كان فناناً فى نقله ، أميناً فى فنه ، موفقاً فى عمله .

على أننى كنت أوثر أن يلتزم النقل عن نسخة واحدة بعينها ، فإن تفاوت الطبعات أدى لامرتين إلى شىء من الزيادة والنقص فى بعض

مواضع الكتاب . ولذلك جاء بعضه منقولا عن نسخة والبعض عن أخرى ، وبين الأصلين تفاوت يقتضى لمن يريد أن يراجع الترجمة أن يعالجها من نسختين وفى ذلك ما فيه من مشقة . على أن عدم الحرص على نسخة واحدة لم يخرج المترجم الفاضل أبداً فى مواضع الزيادة أو مواضع النقص عن قول المؤلف وعمله ولم يكن فيما لم يحرص عليه مقترفاً صغيرة ولا كبيرة (١) .

أسأل الله للأخ الكريم أن يوفقه فى عمله ، ويمد فى أجله ، لينقل إلينا كثيراً من هذه الروائع الأدبية ، فإن الله قد خصه بما لم يخص به الكثيرين من النقلة من الوقوف على سر اللغات ، وآتاه من القدرة على صحيح الترجمة وفصيحها ما لم يؤته الكثير من متعاطيها ، فلا يسعنى إلا أن أرجوه أن ينقل إلينا الكثير والكثير ، فإنما ينقل بذلك لغتنا العربية إلى خطوات فى سبيل تقدمها فضلا عما يغذى به عواطف شبابنا وعقول شيوخنا من هذه الثمرات الشهية ، والزهرات العطرية ، التى تفتحت فى رياض الغرب فكان لكل قطر من شذاها نصيب .

منصور فهمى

---

(١) رأى لامرتين بعد الطبعة الأولى لرفائيل ان فى بعض الجمل شيئا من المبالغة او بعضا من الحدة فتناولها بالحذف فى الطبعات التالية ثم غير فى تقسيم الفصول . وكان امامى سلعة الترجمة هاتان الطبعتان ، فكنت أوافقه مرة واخالفه اخرى ابتغاء الجمع بين فضيلتى النسختين . فاذا قوبلت الترجمة على احداهما دون الاخرى ظهر فى بعض المواضع منها اختلاف يكو فى النسخة الأخرى اتفاقا ولا شك . (المترجم)